"باية حسين المرأة المناضلة"

بقراءة عمار بلخوجة

الدكتورة خديجة بلخير، جامعة تيارت

مقدمة

المرأة ذلك الكائن الإنساني الذي لا يكتمل وجوده إلا بممارسة حقوقه الطبيعية إلى جانب الرجل، رمز للعفة والطهارة والحياء على غرار ما كان ينظر إليها عبر العصور على أنها مجرد حاجة بيولوجية أو رمزا للذة والغواية، فهذا التصور الذي يعتبر إجحاف في حق المرأة قد تغيّر إثر التقلبات السياسية والثقافية والاجتماعية التي شهدها العالم، وأضحت المرأة أداة فعّالة في المجتمع تتمتع بكل حقوقها تماما كالرجل، غير أن هذا الأمر لم يتحقق إلا بعد معاناة أليمة عاشتها الأنثى في كل أقطار العالم، وبالأخص منه العالم العربي الذي كان ضحية التبعية والهيمنة الاستعمارية في العصر الحديث، هذا المستعمر الذي انتهك حرمات وثروات البلاد،فلم تنفع معه إلا القوة، وذلك بإحداث المقاومات والثورات من أجل استعادة الوطن، ولقد كان للثورة الجزائرية أثر بالغ في التاريخ لما حققته من انتصارات عظيمة يضرب بها المثل فهذا الصمود أمام العدوّ الفرنسي والذي دام قرابة مائة واثنان وثلاثون سنة مكن الشعب الجزائري من التحدي لكل الصعاب والعقبات التي تعتريه في مشواره النضالي، وللمرأة الجزائرية حضور قويّ في هذه المسيرة النضالية أمثال : لالا فاطمة نسومر حسيبة بن بوعلي، مليكة قايد، جميلة بوحيرد، وباية حسين وغيرهنّ، ولهذه الأخيرة وقفة مع المؤرخ الجزائري عمار بلخوجة الذي قام بتحليل سيرتها التاريخية ونضالها السياسي الذي كان قبل الاستقلال واستمر حتى بعده، فكيف كانت قراءته لتلك الأحداث التاريخية التي شهدتها باية حسين ؟ وما هو موقفه من نضالها إبان ثورة التحرير الوطني؟

يعتبر عمار بلخوجة[1] من المؤرخين الجزائريين الذين أولوا أهمية كبيرة للكتابة التاريخية، فانصب فكره في تحليل تلك الأحداث التي شهدتها الجزائر خلال ثورة التحرير الوطني، حيث وقف عند كل شخصية كان لها الفضل في الجهاد والمقاومة، وتعد باية حسين[2] من المناضلات الجزائريات التي خصص لها وقفة فكرية تستحق القراءة، هذه المرأة التي كانت رمزا للنضال والمكافحة، كادت أن تهمش في ضوء الكتابات التاريخية، ولعل هذا ما دفعه إلى الكشف عن بعض معالمها الشخصية والتاريخية، وإن كانت هذه الكتابات ليست بكثيرة العدد حسب رأي عمار بلخوجة " ولكن لها الأفضلية في إبراز التكريم لسيدة كانت قد اعتقدت أنّ تحرير المرأة الجزائرية الذي بدأ وأعلن من قبل ثورة نوفمبر 1954 التحريرية، سوف يتواصل بالضرورة،وسوف يتحقق خلال الأعوام التي تتبع الاستقلال "[3]، ومسألة تحرير المرأة شهدت ثورة كبيرة في العالم العربي الإسلامي خلال العصر الحديث، هذا العصر الذي مر بمرحلة صعبة جعلته يعاني تخلفا وتأزما في شتى المجالات، فكان من مسؤولية علمائه هو التفكير في الإصلاح والنهضة، وبدأت هذه الفكرة بالمشرق العربي مع الطهطاوي وجمال الدين الافغاني ومحمد عبده وغيرهم، فهؤلاء نادوا بالتغيير وإصلاح ما هو عائق في التنمية، بل وبضرورة تحديث المجتمع العربي بمتطلبات المجتمع الغربي، وكانت المرأة الشغل الشاغل في تلك الفترة باعتبارها أداة فعالة هي الأخرى في النهضة والتنمية إلى جانب الرجل ولكن مصطلح " تحريرها " لم يتوقف على جانب التعليم والعمل ومشاركتها في الجمعيات والمؤسسات، بل امتد ليمس نوعا ما من خصوصياتها التي تمثل جزءا من ثقافتها وتراثها كمسألة اللباس مثلا، وإن اختلف الأمر في المغرب العربي بحكم تقاليده وعاداته، وبحكم أيضا طبيعة المستعمر وما مدى سياسته التي كان يمارسها على بلدانه، فإنّ فكرة " تحرير المرأة " أخذت نصيبها من التطبيق، وأصبحت تمارس كل حقوقها، حتى حق السلاح والمشاركة في الحرب والثورة تماما كالرجل.

وفي ظل تلك الظروف التي شهدتها الجزائر خلال الأربعينات والخمسينات، كان على المرأة أن تساند الرجل لأن القضية هي قضية الوطن الذي يحمل مسؤوليته كل الكائنات التي تتربع على عرشه، بل لقد كانت فرصة للمرأة الجزائرية أن تثبت ذاتها وتضع بصمتها في

التاريخ، وفعلا تمكنت من ذلك بفضل مساهماتها البسيطة سواء على مستوى الأرياف بإعداد الطعام وغسل الملابس للمجاهدين أو العمل كممرضة لإسعاف المرضى والمصابين أثناء العمليات الثورية، بل منهنّ من كلفنّ بمهمّات تتجاوز طبيعتهنّ البيولوجية، ويرى كثير من الباحثين أن " المرأة الجزائرية أثناء الثورة التحريرية كانت أكثر تحررا منها بعد الاستقلال،فالثورة لم تكن ضد المستعمر فحسب، بل كانت أيضا ضد الأفكار البالية التي تميّز بين الذكر والأنثى في الإنسانية " [4]، لأن المرأة في المجتمعات العربية عامة وفي الجزائر خاصة لم يقتصر دورها سوى على الإنجاب والتربية و لم يكن لها حق في التعبير أو ابداء الرأي، بل أكثر من ذلك فلم تكن تحظى حتى باسمها كحق طبيعي، وقاسم أمين من خلال كتابه "تحرير المرأة" يصور لنا هذا المشهد، فبرغم من تكريم الإسلام للمرأة وإعطائها حقوقها، إلا أنّ المجتمعات الإسلامية تغافلت عن ذلك للأسباب كثيرة أهمها عدم فهم ووعي ما جاءت به تعاليم الإسلام، والثورة بهذا قد فتحت منافذ لإعادة النظر في قضية المرأة ككائن إنساني، لكن سرعان ما تراجع دورها بعد الاستقلال، وهو ما عاشته باية حسين وتحملته بخيبة أمل عميقة كما وصفها عمار بلخوجة، وذلك بسبب عودة تلك النظرة التقليدية، والتي تحصر المرأة في عالم المنزل خاضعة للنظام العائلي المعمول به في البيوت الجزائرية .

وقت الاستقلال اختفت المناضلات من الحياة السياسية، ذكرياتهنّ فقط ظلت ملتصقة بالذاكرة الجماعية، وبداخل كل واحدة منهنّ ظلت مخبوءة رغبة شديدة في العدالة الاجتماعية [5]، التي لم تنصفهنّ بحكم سلطات عليا جعلت أفضلية الذكر على الأنثى خصوصا في المجال السياسي، وابتعاد المرأة عن هذا المجال بالتحديد على حسب رأي بلخوجة هو دعوة لفتح أبواب التطرف الديني، لأن المرأة أداة فعالة في المجتمع وبها تبنى الحضارة والنهضة، وهذا ما أشار إليه المفكر الجزائري مالك بن نبي عند حديثه عن شروط النهضة فقال : " إن المرأة والرجل هما قطبا الانسانية، ولا معنى لأحدهما بغير الآخر، فلئن كان الرجل قد أتى في مجال الفنّ والعلم بالمعجزات، فإن المرأة قد كونت نوابغ الرجال ..وإعطاء حقوقها على حساب المجتمع معناه تدهور المجتمع، وبالتالي تدهورها، أليست هي عضوا فيه ؟ فالقضية ليست قضية فرد وإنما قضية مجتمع "[6]، وحينما يتعلق الأمر بمسألة

قومية تصبح القضية هي قضية الجميع، فلا تفضيل بين ذكر وأنثى وتحرير الوطن هو خطوة نحو التقدم والتطور .

والتفاتة المؤرخ عمّار بلخوجة إلى المجاهدة باية حسين ما هو سوى إبراز الدور الذي لعبته المرأة الجزائرية في ثورة التحرير، بالرغم من صغر عمرها آنذاك إلا أن الوطنية كانت تحيى في قلوب الصغار قبل الكبار، يقول بلخوجة : "باية حسين هي هذه المراهقة التي دخلت الحرب ضد الاستعمار في الوقت الذي لم يكن عمرها سوى 16 عاما، المعركة شرسة هي معركة الجزائر (العاصمة) معركة أطفال القصبة الذين تجرأوا على تحدي القوة والكره لكل من ماسو وبيجار، والجلاّدين، العاملين في خدمة نظام صنع عار الانسانية : الاستعمار "[7]

فهذا الاحساس العميق والشعور القومي كان ينمو يوما بعد يوم في قلب باية حسين وهي لم تتجاوز بعد سنّ الرشد، والواقع المؤلم قد صنع منها امرأة قوية تتحدى الوجود، فخاضت غمار الحرب وهي تعلم ما يؤول إليه مصيرها، ولكن هكذا هي النفوس النبيلة الفاضلة التي لا تخشى الموت، وكرامة الانسان هو أن يعيش في عزة وسلام وليس في قلق وخوف وحرب ودمار، ووجوده كما قال عبد الرحمن بدوي هو " ما يفعله وأفعاله هي التي تحدد وجوده وتكونه " [8]، وهذا هو منطق التدبير في حياة الفرد، وما فعلته باية حسين هو المشاركة في عملية ثورية ضد المستعمر الفرنسي، والتي تمثلت في وضع قنبلتين في ملعبي العناصر والأبيار، فكانت سببا كافيا في حرمانها من رؤية الطبيعة وجمالها، فأدخلت السجن وحكم عليها بالإعدام سنة 1957، وفي السجن بدأت معاناتها النفسية خصوصا بعد تلقي خبر وفاة والدتها التي توفيت بسبب خبر محاكمتها، إلا أنّ المناظر التي شاهدتها في السجن من أساليب التعذيب والتنكيل التي استعملها المستعمر الفرنسي على الجزائريين، جعل ألم الجزائر بقلبها أكبر من كل شيء، فلم تجد وسيلة للتعبير عن ذلك سوى بعض الكلمات يدونها التاريخ بأقلام دموية " عندما لم يكن أحد يعرف لماذا تمّ سجننا، عندما كانت كل واحدة منّا لا تعرف بماذا تهتمّ، وأنّ ذكرياتنا المألوفة تتلاشى وتمحى وأنّ كل واحدة منا تسأل القدر،دخلت إلى سجننا عندما لا شيء بدا في الأفق "[9]، فالذكريات على تعبير برغسون

هي أحوال نفسية محضة، وكلما كان الحاضر أليما ومفزعا تلاشى الماضي بكل تفاصيله الجميلة .

ويبقى الاستعمار هو بؤس الانسانية كما قال بلخوجة [10]، فلم يكن منصفا حتى في أساليب التعذيب التي أقامها في حق الجزائريين بل لم تسلم المرأة أيضا من خبثه ووحشيته، فكان جسدها الطاهر فريسة له ليشبع غرائزه الحيوانية، ولربما كانت آلامها تفوق معاناة الرجل باعتبارها كائن ضعيف، فجسمها لا يتحمل ولا يقوى على ذلك التعذيب الذي ينزع صفة الانسانية، فالمرأة كانت " ضحية العنف سواء من مناضلي حركة التحرير أو القوات الاستعمارية، وغالبا ما كان يمارس عليها العنف حتى الموت "[11] الذي أصبح خلاصها الوحيد من جحيم الحياة .

وحينما يفقد الجسد الأنثوي قَدَسيته التي أولى بها الخطاب الديني أهمية كبيرة،تضعف تلك العلاقة الايمانية بين العبد وربه، فيقصر العابد في أفعاله العبادية اتجاه خالقه الذي كرمه في أحسن تقويم، وتبدو هذه العلاقة جلية عند سادة الصوفية حينما يعتبرون الجسد وسيلة للمعراج الروحي، فهو بداية للارتقاء إلى عالم تتوحد فيه الذوات، وهو الوحيد الذي " يؤدي طقوس الصوفي، فهو الذي يجوع ويكابد ويحترق شوقا للوصول، ويتألم ويضحي بكل الملذات من أجل أن يكون لائقا بالروح "[12]، فتعذيب الجسد بلغة الصوفية يقابله تطهير الروح وتزكية النفس، وغيابه عن العالم الحسي هو تهيئته للحضور في عالم المكلوت حيث الانتصار على الذات والفوز الأعظم بالقرب الإلهي، لكن التجربة التي ذاقتها باية حسين لم تكن كذلك، على الرغم أن التاريخ يشهد لبعض القادة أن انطلاق تجاربهم الروحية كانت من السجن كالأمير عبد القادر الجزائري الذي خصص أوقاته للخلوة، فيفنى عن ذاته وعن الخلق ليبقى في حضرة الذات الإلهية ولهذه النفحات الروحية دور كبير للسجين والمتألم والحزين، هي وسيلة لاطمئنان وللراحة النفسية، بل وللنسيان لأنه " بمجرد تذكر الألم يتمّ عيشه من جديد بطريقة أو بأخرى، ولكن هو في الوقت نفسه وضع يتجه عكس الحفاظ على الذاكرة " [13] وهذا ما أدلت به باية حسين حينما قالت : " لا أرغب في تذكيركم

بالوحشية الجسديّة التي وأنا فتاة مراهقة، تعرضت لها من قبل جلاّدي من جهة أخرى ستعذرونني لعدم تذكيركم بالتفاصيل التي أرغب في دفنها إلى الأبد في ذاكرتي، ومحو رعب مرحلة من تاريخنا الذي عبر الأيام يحرك قساوة النّظام الذي قرر إعادة السلام إلى الجزائر "[14]، فنسيان بعض الحالات الماضية قصدا حسب فرويد، وبالضبط الأحداث المؤلمة التي نطردها في ساحة اللاشعور، هو وسيلة لتجاوز الألم والتعايش مع معطيات الحاضر .

و فعلا هذا ما آمنت به باية حسين، إذ بالرغم ما تعرضت له بقيت صامدة ولم تستسلم للوضع السيئ أمام العدو الفرنسي، بل زادها قوة لتواصل مهامها النضالية حتى داخل السجن، تقول باية : " الطريقة الوحيدة لتسجيل قرارنا بمواصلة المعركة، كانت تتجسد بالنسبة إلينا نحن المساجين، في الأناشيد الوطنية والدينية، وخاصة في يوم من إضراب الجوع الذي –إذا كان لديكم الصبر على العدّ–تواصل عمليا، خلال شهرين دون انقطاع، باستثناء أيام الأحد طبعا ..هذا الإضراب نفسه عن الطعام سيكون سلاحنا النّهائي لتحقيق مطالبنا الخاصة بالمبادئ السياسية، لم نكن سجناء الحقّ العام، كنّا سجناء سياسيين من جبهة التحرير الوطني "[15]، هي وسائل ترعب العدو وتتحداه، خصوصا مسألة " الاضراب عن الطعام " تشكل خطرا على حياة السجين، وبالتالي على سياسة فرنسا التي تدعي المحافظة على الانسانية أمام العالم، فأين هي من تعامل قادة الجزائر مع المعتقلين الفرنسيين الذين حظوا بالعطف والرحمة والإحسان، بل لم يحرموا حتى من ممارسة طقوسهم الدينية، فالدين هو قانون أخلاقي قبل أن يكون شرائع وتعاليم سماوية .

واللجوء إلى الإضراب عن الطعام وسيلة سلمية فعّالة لإيصال الصوت إلى العالم، أمّا تلك الأناشيد الوطنية والتراتيل الدينية هي حوافز تجدد الثقة بالنفس، وتفتح أبواب الأمل، كما أنها تحقق السلام الروحي، وحتى هي بدورها توتر كيان المستعمر الفرنسي لأن عالم الأفكار أهم من عالم الأشياء وهو الذي نواجه به التحديات، وتستمر التضحيات للمناضلين والمناضلات الجزائريات في سبيل الوطن من أجل العيش بعزة وكرامة، تقول باية حسين : " مطالبنا تحققت بفضل التضحيات اللانسانية، أحتفظ شخصيا ويحتفظ كل

الأخوات وكل الإخوة بالآثار المرعبة على المستوى الجسدي والمعنوي "، فاسترجاع السيادة الوطنية وتحرير البلاد من المستعمر الفرنسي جاء بعد تجرد هؤلاء من هويتهم، التخلي عن سعادة الذات من أجل سعادة الآخر، إنها التضحية التي كانت تجري في عروق الشعب الجزائري، وهذا ما قالته تماما المناضلة لويزات إيغيل احريز [16]" كان همي الوحيد الذي يحتل الصدارة في فكري هو الجزائر المستقلة ذات السيادة ولا شيء غير ذلك ولا أكثر من ذلك "، فعلا هو إثراء لمفهوم الوطنية التي لا تخرج عن كونها سوى استعداد لتقديم التضحيات لمصالح البلد بل هي صفة أخلاقية تولدت عنها مفاهيم عدة كالمواطنة التي أصبحت فيما بعد حق من الحقوق السياسية، إذ الفرد له حقوق وواجبات اتجاه بلده، وللدولة حق اشباع الحاجات الأساسية للمواطن، ولعل أول ما يطمع فيه الفرد هو الحرية التي تعد حق طبيعي كما بيّن ذلك جون جاك روسو في كتابه العقد الاجتماعي حيث قال : " وتنزل الإنسان عن حريته يعني تنزلا عن صفة الإنسان فيه وتنزلا عن الحقوق الانسانية، وعن واجباتها أيضا، ولا تعويض يمكن لمن يتنزل عن كل شيء، وتنزل كهذا يناقض طبيعة الانسان، ونزع كل حرية من إرادة الإنسان هو نزع كل أدب من أعماله " [17]، إذ كيف يمكن للمرء أن يعيش بسلام إن سلبت منه حريته، فهذا التوتر والقلق الدائم الذي صاحب كل الجزائريين في تلك الفترة، هو الحافز للتفكير والتخطيط من أجل المطالبة بالحرية، فتجسدت تلك الأفكار في عمليات ثورية محكمة قهرت بها العدو رغم قوته وبطشه، وتحقق الانتصار بفضل أبطال ثورة نوفمبر التي خلدت في التاريخ إلى يومنا هذا، وقد عبر عمار بلخوجة عن معركة الحريات الديمقراطية كما يسميها بقوله : " .. كم كان عدد هؤلاء الفتيات اللواتي ما كدن يبلغن مراهقتهن واللواتي قبلن الانطلاق في معركة شرسة ضد الاستعمار والمدافعين عنه في لباس المظلين ...لقد غنى لهنّ، وأفتخر بهنّ كل مناضلي الحرية في العالم، فخصصت جيزيل حليمي كتابا كاملا لجميلة بوباشا، البطلة التي تعرضت للتعذيب، والتي كان لها الشرف أن تصبح إحدى لوحات بيكاسو، إذ قام الرسام الشهير برسم لوحة المقاومة الجزائرية، التي سوف تزين بحق كمدخل الكتاب المذكور .."[18] فالحرية كانت بالنسبة إليهنّ طوبى أو حلم لابد أن يتحقق على الواقع، بل هي شجرة الخلد وسقياها قطرات من الدم الأحمر المسفوح –كما

قال الكواكبي [19] والأهمّ من ذلك كله هو الوعي لما يحمله هذا المفهوم، لأن الحرية كانت في المجتمعات التقليدية سلوك وتجربة وشعار ومهما " تنفى من الواقع والمجتمع، لا يمكن أن تنفى أبدا من التاريخ، حيث في استطاعتها دائما أن تلجأ إلى الخيال، والخيال ينخر الواقع يوما بعد يوم، باستمرار وبعناد، حتى يأتي على أساسه ويطيح به، فتلج الحرية من جديد وبصخب، حيز الواقع والمجتمع "[20]، ومازالت إلى يومنا هذا أمل وشعار الكثير من بلدان العالم، وخصوصا البلدان العربية .

وإن ارتبطت الحرية في مفهومها باللبرالية الغربية بحكم مبادئ العلم الحديث والمدنية، ومدى الاتصال والتواصل المباشر مع الآخر، إلا انها طرحت بمقتضيات الواقع الاسلامي، وحاول الكثير تقريبها بمفهوم العدل باعتباره قيمة متسامية في المخيال العربي الاسلامي وأصبحت فكرة الحرية أكثر نضجا في المغرب العربي من حيث التأسيس الشرعي والفلسفي، فأغلب رواد الثورة والنهضة لم يعتبروها حق طبيعي كما ذهب إليها أصحاب فلسفة الحقوق الطبيعية، وإنما هي حق قانوني " فالإنسان لم يخلق حرا وإنما خلق ليكون حرا" [21] وجاء هذا الرأي بحكم الظروف القاسية التي عاشها المغرب العربي من جراء الاستعمار الفرنسي، فأخذت " طابع الارتباط باستقلال الوطن أكثر من ارتباطها بحرية المواطن "[22]، لأنه ما إن تحقق الأول سيتحقق الثاني بطبيعة الحال، وعلى رغم الاهتمام الذاتي الذي خص كل بلد إسلامي ، إلا أننا نجد ضرورة المناداة بالوحدة العربية القائمة على أساس الاتحاد والتعاون، وهذا ما أكد عليه المناضل المغربي علال الفاسي في نظرته التي رأى أنها لا تتحقق إلا " بانفتاح العرب بعضهم على بعض، ليتحقق التقارب ومن ثمّ يقع التفاهم فيما بينهم وخصوصا أن الاستعمار قد ترك أثاره الفكرية والثقافية في ربوع الوطن العربي، لذلك كان من مقتضيات هذه الوحدة القضاء على الفوارق التي أحدثها الاستعمار، وذلك عن طريق التواصل بين الهيئات الشعبية التي تؤمن بمبدأ الوحدة " [23]، وفعلا هذا ما حدث مع الجزائر وباقي الدول العربية الأخرى خلال فترة الاستعمار، وخصوصا عند اندلاع ثورة نوفمبر، حيث تلقت يد العون سواء من الجانب المادي أو المعنوي من الدول المجاورة، وهي بدورها

كانت مساندة لهم ولدولة فلسطين خاصة وما زالت إلى يومنا هذا، فما يجمع الأمة العربية هو أكثر ممّا يفرقها .

ولعل الشعور بالقومية لدى الشعب الجزائري هو الذي وحد الصفوف، وجعل الانتصار حليفهم، تقول باية حسين: " أثور ضد الموانع التي يمكن أن تبعد عن القضية الوطنية، هذا الكنز الذي لا يقدر بثمن، الذي هو شبيبتنا بخصوصيتها الرائعة، والتي أنا شخصيا مقتنعة بذلك، هي رهاننا نحو المستقبل" [24]، فصناعة المستقبل تكون بالعمل الديمقراطي لا بالنظام الاستبدادي الذي لطالما مارسته فرنسا على أرض الجزائر، وبفضل" مشاركة المرأة الجزائرية في النضال من أجل التحرر، خلقت لها ظروف ملائمة للحد من الاستعمار الاستيطاني الطويل الذي فرض عليها، وصاحبها بشكل كامل وكلي" [25]، لأن المرأة هي أداة فعالة في المجتمع، إن تمّ صلاحها فقط صلح المجتمع ككل، وإن حدث العكس انحطت حضارة بأكملها، ومن سياسة المستعمر أن يجعل المرأة وسيلة للوصول إلى هدفه بحكم طبيعتها الأنثوية ومدى تأثيرها على الرجل، فتستعمل كثير من النساء كجواسيس لمعرفة خبايا وأسرار العمليات الثورية، أو ينخدعنّ بتقليد النساء الأوربيات في جوانب لا تغني ولا تسمن من جوع كمسألة اللباس مثلا، ولهذا حرص الكثير من علماء الجزائر آنذاك على ضرورة تعليم المرأة الجزائرية وتفقيهها في دينها، ومن بينهم عبد الحميد بن باديس الذي اهتم بموضوع تعليمها، وبالتالي تحريرها من الجهل والأمية،فالمرأة في نظره هي نصف المجتمع واللبنة الاساسية لبناء الأسرة، وإهمالها هو هدم لهذه اللبنة وتفكيك تلك الأسرة، خصوصا وهو يدرك تمام الادراك الخطر الذي يحدق بالأمة من جراء الاستعمار الفرنسي .ومثل هذه الفرص التي أتيحت للمرأة الجزائرية، مكنتها من الانخراط في جمعيات نسوية لمساندة جبهة التحرير الوطني، واستمر هذا النشاط حتى بعد الاستقلال، وهذا ما أدلى به المؤرخ عمار بلخوجة حول معركة باية حسين التي لم تتوقف في 1962، بل واصلت مسيرتها بانضمامها إلى الاتحاد الوطني للنساء الجزائريات، وانخراطها كعضو برلماني في المجلس الشعبيّ الوطني، حيث أتيح لها الاستماع إلى انشغالات المواطنات والمواطنين والدفاع عنهم، وخصوصا حقوق المرأة تقول باية : " إنّ النساء واعيات بوضعهنّ، وهنّ عازمات أكثر فأكثر على المساهمة في تحسينه، لأنّ التغير يأتي تلقائيا، هو ثأر من الحياة

التي لم تدللهن، هنّ اللواتي لم يكن لهنّ حظ التعلم،فهنّ يردنه لأبنائهنّ، وبناتهنّ، التعليم سلاح للبنات، نحن متأكدون أنّ العيش سيكون أفضل للأجيال القادمة، كل الذي فعلناه ليس عبثا، يقظة الوعي والقوانين التي تصدر هي رهان جيد للمستقبل ..نحن الرواد، نحن فخورون بالأسس الموضوعية، التغيير مضمون، والمشعل سيسلم ويستلم" [26] فالتغيير هو مشروع النهضة والحضارة، ومواصلة ما انتهى إليه الأولون، ومادام الوعي واليقظة يصاحب العقل البشري فحتما سيكون مستقبلا أفضل للأجيال القادمة، هذا ما أدركته باية حسين بعدما ذاقت تجربة مريرة من المعاناة والألم والظلم الذي ارتكب في حق المرأة، إذ لا سبيل من تحريرها سوى العلم الذي ينير طريقها .

وما يمكن قوله حول مشاركة المرأة في الثورة الجزائرية، ومساندتها لجبهة التحرير الوطني لم يكن سوى مرحلة تأسيسية لمشروع نهضوي ساد كل أقطاب العالم العربي، فقد تمّ إعادة احياء مكانة المرأة في المجتمع بعدما همشت منه كليا، وأصبحت تشارك في أعمال وقضايا إلى جانب الرجل كالتمريض، والتعليم، وحمل السلاح وغيرها، ولم يعد ينظر إليها ككائن اجتماعي ينصب دوره على الانجاب والتربية والاهتمام بالمنزل وفقط، حتى وإن غابت تلك الأدوار بعد الاستقلال وهو ما أشارت إليه باية حسين، فهو غياب مؤقت لتحتل بذلك كل المجالات خصوصا السياسية منها، وأصبحت محل اهتمام لدى المفكرين والمؤرخين الذين ذهبوا يحللون ويناقشون الأدوار التي قامت بها اتجاه الدين والمجتمع ، وهو ما فعله المؤرخ الجزائري عمار بلخوجة مع مناضلة وضعت بصمتها في التاريخ (باية حسين)، هذه المرأة التي دافعت بعد الاستقلال عن حقوق المرأة المدنية والسياسية كمواطنة، و على ضرورة رد الاعتبار لكل النساء المناضلات في تاريخ الجزائر من خلال رسالة بعثتها إلى رئيس الجمهورية السابق شادلي بن جديد، حيث نصّ بعضها على ما يلي : " ...في الواقع بمجيء الحركة وجدنا أنفسنا نحن النساء المناضلات المحاربات أوائل ضحايا الاضطراب الاجتماعي لبلدنا الذي لم يحضّر لنا شيئا ..لا أستحي أن أقول لكم إنّها مهما كانت بطولتنا، فلا شيء حُضر لنا لهذا الواجب قصد القيام بمسؤوليات جديدة .."[27]، فهذا نص صريح من أجل الدعوة إلى استمرار النضال حتى بعد الاستقلال فمسؤولية المرأة تجاه الوطن لا تتوقف في فترة

زمنية محددة، وإنما يجب امتدادها عبر الزمن والجزائري الذي خاض معارك قوية ضد المستعمر الفرنسي، أنّى له أن يميت تلك المشاعر السامية التي اعترته اتجاه وطنه، تقول باية : " ..لا أظنّ أنني مخطئة عندما أؤكد أنّهم كثيرون اليوم الوطنيون الذين يتمنون تقديم تدعيمهم المخلص في مختلف المهام "[28]، فالإخلاص والوفاء والأمانة والمسؤولية، كلها معاني أخلاقية راقية يعيها الإنسان كلما كان العبء ثقيلا، إذ لا مجال للتفاضل أو الاختيار حينما يتعلق الأمر بالحرية واسترجاع السيادة، وتقدير الذات بالنسبة لهؤلاء هو التضحية لأجل سعادة الآخر، وهذا ما عبرت عنه باية : " ..أشعر بفرح عميق برؤية جيل الحرب وجيل الشباب يمتزجان في هذا الهدف نفسه، الذي يجعلنا أمس اليوم لا نندم على تضحية أفضلنا"[29] فالنضال في مفهومه الباطني لا يُعد سوى المحافظة على الوطن .

لقد كانت إذن رؤية المؤرخ عمار بلخوجة للمناضلة الجزائرية باية حسين، رؤية تاريخية دقيقة، حيث قام بدراسة شاملة على مسيرتها الذاتية التي عُرفت بمدى تحدياتها للعدو الفرنسي، فوصف وحلل تلك الأحداث عن طريق اعتماده على المنهج التاريخي ، وكذا عن طريق لقاءاته الشخصية مع باية حسين واستشهاد أقوالها وهو بذلك قد قام بإبراز دور المرأة ومساندتها في الثورة الجزائرية، خصوصا بعدما رأى التهميش الذي حظين به من طرف الباحثين والمؤرخين والمفكرين .

هوامش الدراسة:

[1]-عمار بلخوجة مؤرخ وصحفي جزائري من أبناء مدينة تيارت، اشتغل مراسلا لجريدة المجاهد أكثر من 25 سنة، ثم صرف اهتمامه إلى التاريخ لولعه به فراح يكشف عن الجوانب الخفية في حياة الشخصيات الوطنية، خصوصا أبناء منطقته كحمداني عدة وعلي معاشي وغيرهما، له عدة مؤلفات من بينها : الاستعمار –جرائم بلا عقاب، ومومو "سحر الكلمات "، باية حسين ..الخ.

[2]-باية حسين مجاهدة جزائرية (1940-2000) من مدينة العاصمة، شاركت في عمليات ثورية ضد المستعمر الفرنسي، ألقي عليها القبض سنة 1957وحكم عليها بالإعدام، وكانت عضوا في أول برلمان جزائري بعد الاستقلال .

[3]-بلخوجة عمار، باية حسين، ترجمة : مصطفى فاسي، موفم للنشر، الجزائر، 2014، ص16.

[4]–مفقودة صالح، المرأة الثورية في الرواية الجزائرية لونجة والغول لزهور ونيسي نموذجا، مجلة العلوم الانسانية، جامعة بسكرة، العدد 02، جوان 2002 ص02.

[5]–بلخوجة عمار، باية حسين، المرجع السابق، ص20.

–بن نبي مالك، شروط النهضة، ترجمة : عمر كامل مسقاوي–عبد الصبور شاهين، وزراة الثقافة والفنون والتراث، قطر، [6](د.ط،د.س)، ص165.

[7]–بلخوجة عمار، باية حسين، المرجع السابق، ص162.

[8]–بدوي عبد الرحمن، دراسات في الفلسفة الوجودية، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ط1، 1980، ص05.

[9]–بلخوجة عمار، باية حسين، المرجع السابق، ص170.

[10]–المرجع نفسه، ص20.

[11]-Danièle Djamila amrane –Minne ,les femmes face a la violence dans la guère de libération ,p .87(www.confluences-mediterranee.com).

[12]–هلال عبد الناصر، خطاب الجسد في شعر الحداثة،(د.ط، د.س)، ص39.

[13]–بلخوجة عمار، باية حسين، المرجع السابق، ص68.

[14]–المرجع نفسه، ص163.

[15]– المرجع نفسه، ص164–165.

[16]–بزيان سعدي، جرائم فرنسا في الجزائر، دار هومة، الجزائر، (د.ط)، 2005، ص76.

[17]–روسو جان جاك، العقد الاجتماعي، ترجمة : عادل عمر زعيتر، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ط1، 2014، ص45.

[18]–بلخوجة عمار، باية حسين، المرجع السابق، ص167.

[19]–الكواكبي عبد الرحمن، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، تحقيق : محمد جمال طحان، دار صفحات للدراسات والنشر، سورية، د.ط، 2016، ص183.

[20]–العروي عبد الله، مفهوم الحرية، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط5، 1993، ص108.

[21]–هداري عبد الله، الليبرالية وتمثل الحرية عند الرواد النهضويين، مؤمنون بلا حدود (مؤسسات دراسات وأبحاث)، المغرب، (د.ط، د.س)،ص11.

[22]–المرجع نفسه، ص12.

[23]–رحاي محمد، من أعلام الحركة التحررية في المغرب العربي " علال الفاسي نموذجا "، مجلة المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، العدد 432 2015، ص148.

[24]–بلخوجة عمار،باية حسين، المرجع السابق، ص174.

[25]-Beatrice borghino ; les combattantes de la guerre de libération national au regard de l'approche de genre et d'autres conflits armes ;5 colloque international sur le rôle de la femme algérienne durant la révolution 1954 /1962,université de Skikda, décembre 2010 ;p10.

[26]- بلخوجة عمار، باية حسين، المرجع السابق، ص212.

[27]-بلخوجة عمار، باية حسين، المرجع السابق، ص226.

[28]-المرجع نفسه، ص227.

[29]-المرجع نفسه، ص227.